شـــكر وتقـــدير

الحمد لله رب العالمين •• والصلاة والسلام على رسوله الأمين •• محمد بن عبد الله الذى أرسله رحمة للعالمين •• بلسان عربى مبين •

يسعدنى أن أتقدم بالشـــكر والثناء الى من أسهموا فى تقويم هـــذه الدراسة بالنقد والتعليق واسداء النصح •• وأخص منهم نخبة كريمة من علمـــاء الدراسات الانســـانية فى جامعة الخرطوم وبعض الجامعات العربية الأساتذة : الدكتور يوسف فضل حسن ، والدكتور ابراهيم الحاردلو ، والدكتور عثمان سيد أحمد اسماعيل ، والدكتور مدثر عبد الرحيم الطيب ، والدكتور تاج السر حران ، والدكتور حسن عبد الله الترابى ، والدكتور عبد العزيز كامل •

ومن الأصدقاء الأستاذ محمد عثمان محمد العوض •

والاخوة الذين أشرفوا على الطباعة التمهيدية •

فلهم جميعا تحية تقدير واعزاز •• ولهم من الله حسن المثوبة وخير الجـــزاء •

المؤلف

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يمتد الوطن العربى عبر مساحات كبيرة فى القارتين الآسيوية والافريقية ولكن الدراسة التى عنيت بها فى هـذه الفصول تتناول قضية الأمة العربية متمثلة فى وادى النيل والهلال الخصيب ، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، لأن هذه المنطقة كانت قبلة أنظـار الـدول الغـربية الطامعـة فى اقتسـام تركـة « الرجـل المريض »[1] نظـرا الى أهميتهـا الاستراتيجية وما يرتبط باحتـلالها من آثـار ومزايـا فى مجـال السـياسة الدولية والتنافس على مواقع النفوذ بين الدول الأوروبية الكبرى ، وكانت فى الوقت ذاته تمثل أهم الأقاليم العربية المنضوية تحت لواء الخلافة العثمانية [2] وقـد تميزت الفترة موضـع البحث (١٨٧٥ ـ ١٩٢٥) بأنها شهدت الارهاصات الأولى لميلاد القضـية العربية الحديثة كما شهدت نموها ودخولها مرحلتها الحاسمة .

لقد درج بعض الباحثين على الفصل بين القضـية العربية فى الهلال الخصيب وما كان يعرف « بالمسـألة المصرية » أو « مسـألة السـودان »[3] وهو فصل ينطوى على عزل للأحداث بعضها عن بعض بحيث تتوارى الصورة الكلية للقضية خلف الجزئيات .

---

(١) تعبير ساخر أطلقته الدبلوماسية الأوروبية على الدولة العثمانية المحتضرة فى ذلك العصر .

(٢) على الرغم من انفراد محمد على بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر فانها ظلت من الوجهة القانونية خاضعة للسيادة العثمانية حتى عام ١٩١٤ (اعلان الحماية البريطانية)

(٣) Mekki Abbas, The Sudan Question (1884 - 1951) Faber and Faber, Ltd, London, 1951.

ومهما كانت الدوافع لهذا الفصل ، فان المسألة واحدة هى قضية « الأمة العربية » بكل مقوماتها الحضـــارية المتميزة ووحدتها اللغوية وانتمائها الاســـلامى • بل هكذا كان الغربيون ينظرون اليها دون أن يسموا الأشياء بأسمائها •

ولعل أكثر الذين يدركون هـــذه الحقيقة قادة الحركة الصهيونية ، فعندما تحدث دافيد بن جوريون فى المؤتمر الصهيونى السابع عشر فـــى « بال » بسويسرا (يونيو — يوليو ١٩٣١) كان يضع هـــذه الحقيقة نصب عينيه •

قال بن جوريون : « ان الخطر علينا لا يأتينا من عرب فلسطين وحدهم ، ولكن علينا أن نفكر فى مصر وشمال افريقيا وكافة المسلمين وكل من يتحدث اللغة العربية »(٤) •

* * *

وقد رأيت أن أتناول الموضـــوع فى الصفحات التالية بقـــدر ما تيسر لى من مصادر أحسب أنها تلقى مزيدا من الأضواء على هـــذه القضية ، ان لم يكن فى صورتها الكلية فعلى الأقل فى بعض جوانبها •

اننى مدين لمكتبة جامعة الخرطوم والمكتبة البريطانية « المتحف البريطانى » بلندن ومكتبة الكونجرس فى واشنطون وقد أثبت فى ذيل هـــذا الكتاب المصادر التى تيسر لى الاطلاع عليها فى تلك الدور • لقـــد أفدت كثـــيرا من مجمـــوعة الوثائق الرســـمية التى نشرها « Albert M. Hyamson » فى مجلدين عام ١٩٣٩ بعنوان :

« The British consulate in Jerusalem in Relation to The Jews of Palestine., »

وهى مجموعة الرسائل المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية وبعض سفارات بريطانيا وقنصلياتها فى الشرق الأوسط حول وضع اليهود، ويشمل الجزء الأول رسائل الفترة (١٨٣٨ — ١٨٦١) والجزء الثانى ، الفترة بين عامى (١٨٦٢ — ١٩١٤) •

---

(٤) D. Ben - Gurion, Rebirth. and Destiny of Israel, New - York, 1954, p. 31.

تلقى هـــذه الرسائل ضوءاً كبيراً على مساعى اليهود فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لدى الحكومة البريطانية لتيسر لهم الهجرة الى فلسطين والاستقرار فيها بممارسة الضغط على الدولة العثمانية لأن فلسطين كانت جزءاً من الولايات العربية العثمانية وذلك قبل ظهور دعوة « هرتزل » مؤسس الحـــركة الصهيونية بنحو خمسين عاما • كما توضح الرسائل مقاومة الدولة العثمانية لهـــذا الضغط اليهودى البريطانى لا سيما فى عهد السلطان عبد الحميد •

وهناك مجموعة أخرى من الوثائق البريطانية اعتمدت عليها فى دراسة فترة ما بعد الحرب (١٩١٩ — ١٩٢٥) وهى وثائق السياسة البريطانية الخارجية المجموعة الأولى (١٩١٩ — ١٩٣٩) •

« Documents on British Foreign Policy, First Series 1919 — 1939 Ed. Woodward and Butler, London, 1952 »

وهـــذه المجموعة حافلة بالمعلومات الهامة عن سياسة الغرب نحو البلاد العربية فى الشرق الأوسط وفلسطين بوجه خاص • ومن الوثائق التى أفدت منها مذكرة عن منشأ وعد «بلفور» لم تنشر وهى للكاتب الصهيونى الأرمنى «جيمس مالكولم» بعنوان: «Origins of The Balfour Declaration» مؤرخة فى يوليـــو ١٩٤٤ ومحفوظة تحت رقم « Cup 1247c. 28 » فى مكتبة المتحف البريطانى • أما عن الحركة الصهيونية فقد استعنت بمذكرات « هرتزل » وكتابه « الدولة اليهودية » ومذكرات « حاييم وايزمان » وبعض مؤلفات أحدها عام « أشر جنزبرج » وتاريـــخ « سوكولوف » للحركة الصهيونية ؛ وبعض مقالات « لوى برانداييس » عن اليهودية والصهيونية ، والتاريخ الاجتماعى والدينى لليهود للأستاذ «Salo Wittmayer Baron» وتاريخ اليهود للمؤرخ «Heinrich Graetz»

* * *

وفيما يتعلق بأمر فلسطين اعتمدت على بعض التقارير الرسمية لحكومة فلسطين — حكومة الانتداب البريطانى — وتقارير لجان التحقيق التى ألفتها الحكومة البريطانية ووقائع اجتماعات اللجنة الدائمة لشئون الانتداب فى جنيف وهى احـــدى لجان عصبة الأمم كما أخذت عن

لوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين : المجموعة الأولى (١٩١٥ — ١٩٤٦) وهى من منشورات جامعة الدول العربية بالقاهرة (١٩٥٧) ، ووجدت كثيرا من المعلومات القيمة فى مذكرات السير « رونالد ستورز » وبعض مؤلفاته .

وفى دراسة الحركة العربية وأهدافها بعد الانقلاب العثمانى فى عام ١٩٠٨ اعتمدت على قرارات المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى يونيو ١٩١٣ وعلى البيانات الرسمية لحزب اللامركزية العثمانى فى القاهرة وعلى أقوال قادة العمل السياسى فى الوطن العربى آنذاك التى كانت تنشر فى مجلة « المنار » من أمثال « رفيق العظم » « وعبد الحميد الزهراوى » والشيخ « محمد رشيد رضا » ومذكرات « أسعد داغر » على هامش القضية العربية .

* * *

ولما كانت القضية العربية الحديثة ذات صلة وثيقة بنمو الشعور القومى والتراث الحضارى للأمة العربية فقد آثرت أن أستهل هذا البحث فى « الفصل الأول » بحديث عن مفهوم « الأمة العربية » ومقوماتها والعوامل التى مهدت لظهور « القومية العربية » خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

* * *

وأفردت الفصل الثانى لدراسة القضية العربية ومعالمها فى ظل الدولة العثمانية (١٨٧٥ — ١٩١٤) وهذه الفترة تشمل بالتقريب حكم السلطان « عبد الحميد الثانى خان » (١٨٧٦ — ١٩٠٨) كما تشمل السنوات الخمس الأولى من حكم الأتراك الاتحاديين « جمعية الاتحاد والترقى » وتمتد من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٤ وتتميز هذه الفترة بأنها كانت تمثل مرحلة الدعوة الى الاصلاح لدعم الخلافة العثمانية وتأكيد وحدتها السياسية وذلك على الرغم من ظهور بعض النزعات العنصرية والقومية والطائفية التى لم يكن لها شأن يذكر ، ولم يكن لدى قادة الحركة العربية حتى ذلك الوقت سعى حقيقى للانفصال عن الخلافة العثمانية أو الثورة عليها بل كان العرب فى

مصر والهلال الخصيب يصفون أنفسهم بأنهم « عرب عثمانيون » يعملون على تقوية الدولة بالنقد البانى والاصلاح السياسى والدينى والاجتماعى.

وعنيت فى هـذا الفصل بايضاح سياسة الدولة العثمانية فى عهد خلفـاء آل عثمان نحـو حماية فلسطين من الهجـرة اليهودية الاستيطانية ، ومقابلة هـذه السياسة بما أصبح عليه الحال فى عهد جمعية الاتحاد والترقى بين سنتى ١٩١٣ — ١٩١٤ عندما جردت الجمعية الخليفة العثمانى من سلطاته الحقيقية على اثر عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ، واتجهت سياستها الى ممألاة الصهيونية والتمكين لها فى المناصب القيادية وفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين والاستيلاء على أرضها عن طريق التملك وهو ما كان محظورا فى عهد الخلفـاء العثمانيين منذ عام ١٨٤٠ الى نهاية حكم السلطان عبد الحميد .

* * *

أما سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) فموضع دراستها الفصل الثالث لأنها تمثل الفترة التى طفح فيها كيل الأتراك الاتحاديين ، ووضحت فيها اتجاهاتهم المعادية للعروبة والاسـلام ، وعنفهم فى قمع حركة الاصلاح الناشئة ، واعدام قادة الحركة العربية أفراداً وجماعات فى دمشق وبيروت ، والحكم غيابيا على قادتها فى مصر . ومن ثم شهدت هـذه الفترة التحول الخطير فى اتجاه القضية عندما قرر قادة العرب الثورة على حكم الأتراك الاتحاديين والدعوة الى الاستقلال الكامل ولم تأل بريطانيا جهدا فى استغلال هذا الموقف وتوجيهه لتحقيق مآربها ، رافعة شعار استقلال البلاد العربية واحياء الخلافة فى دار العروبة فكانت الخديعة الكبرى التى واجهتها الأمة العربية فى تاريخها الحديث .

* * *

ويعالج الفصل الرابع تصاعد الشعور القومى ضد الغزو الأوروبى وردود الفعل لهذه الخديعة بين عامى ١٩١٩ — ١٩٢٥ عندما ثارت مصر بقيادة «سعد زغلول » « وعبد الرحمن فهمى » (مارس — ابريل ١٩١٩)

وأعلن فيصل قيام الدولة العربية فى سوريا (مارس ١٩٢٠) وثار شعب فلسطين على الزحف الصهيونى المنظم ولكن سرعان ما تحول حلفاء الأمس من أدعياء الصداقة العربية الى أعداء لحركة التحرر العربى فقمعت هذه الثورات كلها بقوة وعنف وظفرت الأمة العربية بقبض الريح بعد أن تمردت على دولة الخلافة العثمانية وساعدت على اسقاطها وحصدت خيبة الأمل •

* * *

ونظراً الى خطورة الحركة الصهيونية وصلتها بوحدة الأمة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها فقد أفردت الفصل الخامس لدراسة الصهيونية الحديثة وما تستند اليه من دعاوى فلسفية ودينية والظروف التى أتاحت للصهيونية أن تنمو من طور الفكرة المنبوذة فى نظر أكثر يهود العالم الى حركة سياسية تسخر صناع السياسة الدولية لخدمة أهدافها ومطامعها •

* * *

مقدمة

● رصد مسار القضية فى خمسين عاما ـ تحولات سياسية فى المنطقة العربية ـ دراسات حول القضية ـ أبعادها ومقوماتها التاريخية ـ الصعاب التى تكتنف الدراسة ـ الوجود العربى قبل الاسلام ـ المد العربى بعد الاسلام ـ مسيرة الاسلام بعد العرب ـ الأتراك العثمانيون ـ القسطنطينية حاضرة الاسلام ـ أوروبا أمام تحدى العثمانيين ـ الدولة العثمانية تحتضر ـ العرب على مفترق الطرق ـ عناصر الصراع الفكرى والسياسى ـ انبثاق القضية العربية .

* * *

ليس هذا الكتاب تاريخا للحركة القومية الحديثة فى الشرق العربى أو ما يسميه الكتاب الغربيون « الشرق الأوسط » ولكنه محاولة لدراسة القضية العربية فى تلك المنطقة ورصد مسارها خلال خمسين عاما كانت حافلة بأعمق التحولات السياسية التى قلبت ميزان القوى فى المنطقة وكانت لها آثار بعيدة المدى فى تشكيل مستقبل الأمة العربية .

لقد تناول عدد كبير من الكتاب والباحثين دراسة القضية العربية فى مراحلها الزمنية المختلفة ، مع تباين تصورهم لأبعاد هذه القضية ومقوماتها وجذورها التاريخية فمنهم من تصدى لدراستها باعتبارها جزءاً من تاريخ الشرق الأوسط كالأستاذ « برنارد لويس » فى كتابه « العرب فى التاريخ » وكتابه « الشرق الأوسط والغرب » والأستاذ « ب . م . هولت » فى كتابه « مصر والهلال الخصيب » والأستاذ « محمد أنيس » فى دراسته عن « الدولة العثمانية والشرق العربى » ومن الطبيعى فى مثل هذه الدراسة أن تنال القضية نصيبها بالقدر

الذى يتفق ومكانتها فى الفترة التاريخية موضع البحث ومن ثم يغلب على معالجتها الايجاز والاجمال •

وهناك باحثون تناولوا القضية فى اطارها العام دون تركيز على جانب معين من جوانبها كالأستاذ جبرائيلى « البعث العربى » وجورج أنطونيوس « يقظة العرب » وأمين سعيد « الثورة العربية الكبرى » والأستاذ محمد بديع شريف وزكى المحاسنى وأحمد عزت عبد الكريم « دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة » وغير هؤلاء ولكن هناك من عنى بدراسة بعض جوانب القضية دراسة تقوم على نوع من التخصص والتفصيل أذكر منهم الأستاذ زين نور الدين زين « العلاقات العربية التركية وظهور القومية العربية » وكتابه « ظهور القومية العربية » والأستاذ مكى شبيكة « العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى » والأستاذ توفيق على برو « العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى » وذلك فضلا عن عشرات المؤلفات والمقالات التى ظهرت عن القومية العربية بوجه عام وعن « قضية فلسطين » على وجه التحديد •

ولا شك أن القضية العربية موضوع خصب يفتح أمام الباحث آفاقاً رحبة للتأمل والدراسة ولكنها آفاق محفوفة بالصعاب ، لا يتيسر لفرد أن يوفيها حقها لأن القضية تضرب بجذورها فى الماضى القريب والبعيد وتمتد أبعادها عبر الزمان والمكان وتتنوع مصادرها بين وفرة هنا وندرة هناك وتتناثر أخبارها بين ثقات الرواة وضعاف الأسانيد ومن ثم تصبح مهمة الباحث عسيرة لأنه يواجه كل هذه الصعاب مجتمعة •

ان جذور التاريخ العربى قديمة قدم الممالك التى شهدتها الجزيرة العربية منذ عهد معين وسبأ وحمير (١٣٠٠ ق•م — ٥٢٥ م) وعهد الحيرة والغساسنة وحواضر الحجاز ، مكة والمدينة والطائف ، ولكن العرب الذين غيروا وجه الحياة فى الشرق الأوسط وأناروا ظلمات العصور الوسطى بقبس الحضارة الاسلامية ونقلوا تراث الفكر اليونانى الرومانى الى أوروبا واتصل تاريخهم بالعالم المعاصر هم العرب المسلمون الذين

نهلوا من معين الاسلام ثم خرجوا من المدينة المنورة فى هجرة فريدة غيرت مجرى التاريخ فى رقعة فسيحة من العالم ، وبنت حضـــارة سماها أحد الكتاب الغربيين «المعجزةالعربية Le Miracle Arabe »[١] مشيرا بصفة خاصة الى عصر الرشيد والمأمون .

غير أن المد العربى ما كاد يبلغ مداه خلال ثلاثة قرون بعد ظهور الاسلام حتى أخذ العرب يتوارون من المسرح السياسى خلف شعوب ودول أخرى شرح الله صدرها للاســـلام فحملت رايته عبر قارات الكرة الأرضية ، وكانت آخر دولة من تلك الدول التى بسطت نفوذها على العالم العربى وارتبط بها مصير الأمة العربية حتى يقظتها الحديثة هى دولة الأتراك العثمانيين أو الخلافة العثمانية التى أضحت مبعث قلق عظيم لساسة أوروبا منذ أن اتخذت الآستانة « القسطنطينية » حاضرة لها سنة ١٤٥٣ م الى ظهور « المسألة الشرقية » فى القرن التاســـع عشر .

وعندما أخذ بناء الدولة العثمانية فى التصدع الداخلى وانهزمت جيوشها أمام الزحف الخارجى ، وتصاعدت المطامع السياسية الأوروبية لاقتسام أراضيها وتسربت الأفكار الغربية الى أقاليمها العربية ، أخذ العـــرب يبحثون عن ذاتهم ولغتهم وحضارتهم ويتطلعون الى تغيير حاضرهم وبناء مستقبلهم ولكنهم لم يجدوا الطريق ممهدا لتحقيق آمالهم .

لقد انفرط العقد الذى كان يربطهم تحت راية الخلافة العثمانية وأطلت عليهم دول غربية عنهم ، تفوقهم علما وقوة ودهاء فوقف العرب حائرين أمام هـــذا التحدى : وقفت كثرتهم مع الدولة العثمانية تشد أزرها وتدعو الى اصلاحها لمواجهة الغزو الأوروبى ، وجنح آخرون الى الانفصال عنها تحت تأثير الأفكار الجديدة داعين الى « دولة قومية » تفرق بين الدين والدنيا [٢] وبين العبادة والسياسة ، على غرار ما حدث فى أوروبا ، وانبرت طائفة منهم تمجد الحضارة الجديدة وتتخذ منها

---

(١) Max Vintejoux. Le Maracle Arabe, Charlot, Paris 1950, pp. 85 - 107. Introduced by Louis Massignon.

(٢) رفيق العظم : عن أسباب تقهقر المسلمين ، المنار م ٧ نوفمبر ١٩٠٤ ص ٦٦٠ — ٦٦١

مثلا أعلى وتتشبه بأهلها حتى فى عجمة اللســـان فظهرت الدعوة الى « الاستلتان »[٣] واتخاذ العامية لغة مقام العربية الفصحى ، واستجاب آخرون لدعوة « الفرنجة المحدثين » وتحريضهم على اعلان الحرب ضد الدولة العثمانية لقاء وعد كاذب باعادة الخلافة الاسلامية الى مهدها فى الجزيرة العربية وسلالتها القرشية وبين هؤلاء وهؤلاء كان « فرنجة القرن العشرين » يخططون لابتلاع الوطن العربى بأسره وتدمير الخلافة العثمانية[٤] على السواء ، واقامة دولتهم الجديدة على أرض فلسطين تحت علم الصهيونية ومن خلال هذا الصراع السياسى الفكرى العقدى برزت القضية العربية الشائكة فى صورتها الحديثة ، لتحكى قصة أمة عصفت بها رياح الفرقة والشتات بعد سقوط الخلافة .

أما العوامل التى مهدت لظهور هــذه القضية وحددت اتجاهاتها فى خمسين عاما فهى الموضوع الذى تتناوله الفصول التالية بشىء من التفصيل والتحليل .

* * *

---

(٣) أى استخدام الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية .

(٤) كان لالغاء الخلافة العثمانية فى عام ١٩٢٤ صدى واســع فى العالم العربى والاسلامى ونعاها أحمد شــوقى فى قصيــدة بعنــوان « خلافة الاســلام » :

عادت اغــانى العرس رجع نواح	ونعيت بــين معــالم الأفــراح
كفنت فى ليــل الزفاف بثــوبه	ودفنت عنــد تبلج الاصــباح
ضجت عليــك مآذن ومنــابر	وبكت عليــك ممالك ونــواح
الهنــد والهــة ومصر حزينــة	تبكى عليــك بمدمع ســحاح
والشــام تسأل والعراق وفارس	امحــا من الأرض الخــلافة ماح
هتكــوا بأيديهم قــلادة فخرهــم	موشــية بمواهب افتتــاح
نزعوا عن الأعنــاق خــير قلادة	ونضوا عن الاعطاف خــير وشاح

(الشوقيات : دار الكتــاب العربى ، بيروت ص ١٠٥ — ١٠٦ — لم يذكر تاريخ النشر) . لكن شيخا من شــيوخ مصر كان له رأى آخر فأصدر كتابا (١٩٢٥) ندد فيه بفكرة الخلافة منكرا صلتها بالاسلام ووصف الصديق أبا بكر رضى الله عنه بأنه كان « أول ملك فى الاسلام » وأن ملكه « قام على أساس القوة والسيف » وأن ذلك كان « أمرا مفهوما للمسلمين حينما كانوا يتآمرون فى السقيفة عمن يولونه أمرهم » .

على عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم ص ١٨٣ — ١٨٤ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (لم يذكر تاريخ النشر) .

للاطلاع على تفنيد هذا الزعم ، راجع هامش ٣٩ بالفصل الأول وانظر : محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ .